مذكرات من التراث المغربي

مدير المجموعة : العربي الصقلي

مدير المشروع العربي : مصطفى القصري وعبد الحميد اليوسفي (مساعد٢)

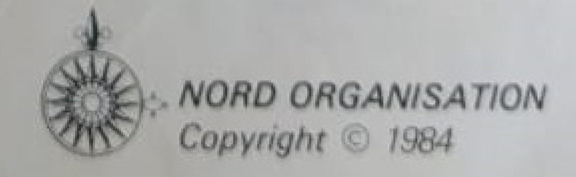
مدير النشر : هنري مورا ن

كتابة التحرير : بشرى بنعزوز

الوثائق : لسلين تيشر والمؤلفين

الماكيت : جوزي مورو

الاعمال التصويرية : لانييس أدول


NORD ORGANISATION

أصل أهالي شمال إفريقيا

مصطفى أوعشي

يعتبر تركيب الشعب البربري من أكثر المسائل تضاربا وأصعبها طرحا بالنسبة لحقبة ماقبل التاريخ المغربي :

وبمجرد ما بدأت الأبحاث تنجز في هذا المضمار ، عمد المؤلفون والكتاب التقليديون وهم : هيرودوتس ، وهوميروس ، وبوليبيوس ، وفرجيليوس ، وسالوست ، وبلين لانسيان ، إلى تقديم إسهاماتهم في هذا المضمار ، محاولين فك لغز أصل وتكوين الشعب البربري ، كما أعطى ابن خلدون بدوره رأيه في هذا الموضوع . أما المولعين بعلم الاناسة أمثال برتراند فيدهيرب ، وجيون ، فقد حاولوا من جهتهم أن يضعوا حدا لهذا الأشكال . وقد انكب علماء التاريخ والسلالات والاناسة الواحد تلو الآخر أو جميعا في آن واحد ، على بحث أصل البربر ، إلا أن التفسيرات الأكثر إبداعا لم تحصل لسوء الحظ على نسبة تذكر من النجاح . لقد كانت تشمل غالبا عناصر خرافية منتمدة من أساطير كتلك التي تحكي عن مملكة الاطلنتيد .

لهذا ، وبدون إهمال النظريات المختلفة التي وردت في هذا الموضوع ، يجب إختيار المصادر نفسها سواء كانت كتابية أو نقوشية (فرعونية أو فينيقية أو قرطاجية) الكلاسيكية منها والعربية ، مع استعمال الاكتشافات الأثرية فضلا عن كل ذلك .

لقد تم تمييز أهالي المغرب الكبير بثلاث تعبيرات جديرة بالتحليل : ليبيون ، وآفريون ، وبرابرة .

الليبيـــون

يعتبر لفظ **ليبين أو ليبيا** ، مثبتا بالكتابات وكذا بالنصوص التقليدية . فتبعا للكتابات الهيروغليفية ، يظهر أن مصر الفرعونية عرفت الشعب الليبي في وقت جد مبكر . فقد استعملت نصوص هيروغليفية ترجع إلى الألفي الثاني قبل الميلاد ، لفظ « ليبو » « أو ريبو » (R'B'W) للدلالة على شعوب كانت تعيش في غرب واد النيل .

وفي بعض إصحاحات الانجيل ، ورد ذكر



« هوميروس » صاحب « الأوداية » (القرن الثامن من قبل الميلاد) .

الليبيين ، إذ يعتقد ان لفظ « لياهيم » الوارد في سفر التكوين 13،10 يدل على مفهوم « ليبيين » ، ويتعلق الأمر هنا بليبيين كانوا يحاربون في صفوف الجيش الفرعوني ضد « روبعام » ملك العبريين .

وقد حدثنا « هوميروس » ، (القرن الثامن) في الأوديسة (85،4 – 90) عن « ليبيا هاته ، حيث تنبت القرون لدى الخرفان منذ ولادتها ، وحيث يحظى الجميع ، من الأمير إلى الراعي ، بحصته من الجبن واللحم والألبان ، وحيث تسارع المواشي إلى الاحتلاب ، فالماعز تلد في ليبيا ثلاث مرّات في السنة الواحدة » .

ربما كانت ليبيا التي تحدث عنها هوميروس تعني بلاد إفريقيا الشمالية ، التي كان الفينيقيون يترددون إليها منذ الألفي الثاني قبل ميلاد المسيح ؟

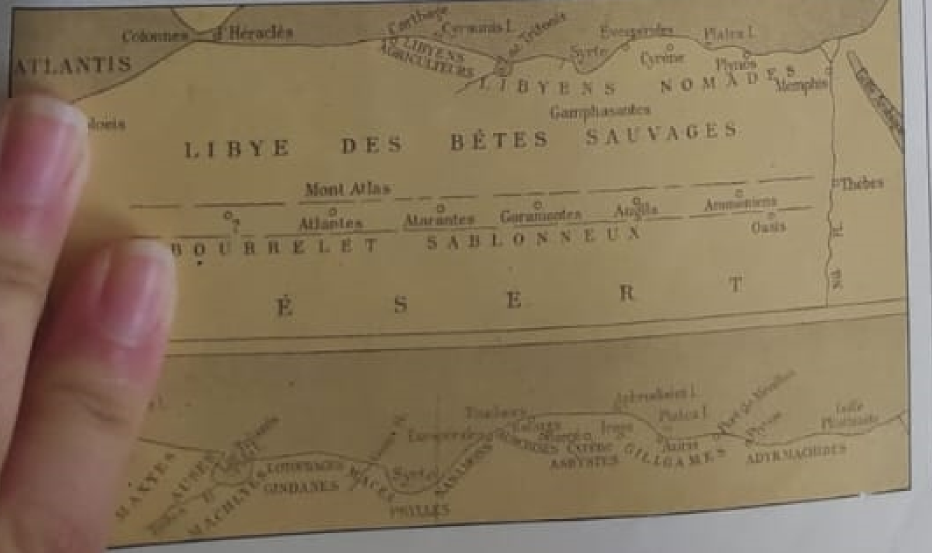
أما « هيرودوتس » (القرن الخامس قبل الميلاد) فقد كتب في مؤلفه « تواريخ » (32،2) ، وهو يتحدث عن أهالي إفريقيا الشمالية : « ... لأن سواحل البحر في ليبيا ، والتي تمتد نحو الشمال بدءا بمصر وإلى رأس سيم الذي تنتهي عنده الأرض الليبية ، يقطنها من مبدئها إلى منتهاها أناس من أصل ليبي (شمال إفريقي) ينقسمون إلى عشائر عديدة ، باستثناء الأجزاء التي يحتلها اليونانيون والفينيقيون » .

حدثنا هيرودوتس إذن ، في هذا النص ، عن سلالة ليبية تضم عدداً كبيراً من المجموعات البشرية موزعة على اتحادات قبلية . كما أشار بجوارها إلى تواجد الأجانب أو المهاجرين ، فاليونان كانوا يوجدون في « سيرينايكة » (نواحي بنغازي الحالية) بينما كان الفينيقيون يحتلون نواحي أخرى ساحلية .

ويقول « بوليبيوس » (القرن الثاني قبل الميلاد) من جهته ، إن الليبيين كانوا أهالي أصليين خاضعين للادارة القرطاجية . كما أنه في حديثه عن جيش المرتزقة التابع لقرطاجة ، قدم « ماثو » كزعيم ليبي ، و « ناغيفاس » كأمير نوميدي . وهذا يعني أن المؤرخ « بوليبيوس » يعتبر الليبيين جزءا من الشعب الافريقي .



جغرافيا هيرودوتس (القرن 8 ق . م .)



ليبيا الشمالية كما يراها هيرودوتس (مؤلف كزيل 1915)
المكتبة العامة بالرباط

أصل أهالي شمال افريقيا

وعند « بلين لانسيان » (القرن الاول الميلادي) استعمل لفظ « ليبي » للدلالة على شعب افريقيا الشمالية ، ولفظ ليبيكي « للاشارة إلى بعض المتوجات الحيوانية والنباتية التي يرجع أصلها إلى هذه المنطقة .

وأما سالوست « (القرن الأول قبل الميلاد) . فإنه يعتبر الليبيين أول سكان إفريقيا . وأكد « فيرجيليوس » (القرن الأول قبل الميلاد) ، في ملحمته الشعرية « الانياذة » التي أشار فيها إلى بعض المدن الليبية ، أن الليبيين من جنس لا يقهر في الحروب والمعارك .

وذكرت المدونات والنقوشات الفينيقية والقرطاجية لفظي « ل ب م ت » ، و « ل ب ي » (L B Y-L B M T) مرات متعددة . وقد عثر بمدفنة « سلامبو » بقرطاجة على مجموعة من الشواهد الدفنية كتب عليها اللفظان المشار اليهما . بينما اكتشفت خلال الأبحاث المجراة في معبد « الحفرة » بقسنطينة بالجزائر ، نصب دفنية كثيرة تضمن أحدها الاشارة الى لفظ ل ب ي (L B Y) الذي استعمل للدلالة على إسم علم . ويتعلق الأمر هنا بإهداء تم باسم « أريش » (Arish) إبن ل ب ي (L B Y) .

وفي كتابة ليبكية فينيقية عثر عليها بمكثر بتونس فك الباحث « ج . ك . فيفريي » الشفرة (BS LB Y M) مشيرا إلى أنها تعني : « فوق التراب الليبيّ » .

كما فك الباحث « شارلمون كانو » لغز التعبير (MHNT BSD LWBYB) الذي تضمنته احدى الكتابات المنقوشة القرطاجية المكتشفة بطرابلس بليبيا ، بما يعني : « قائد الجيوش فوق الأراضي الليبية » . وقد ضُرب لفظ « ليبي » بأحرف إغريقية على قطع نقدية ترجع إلى القرن الثاني قبل الميلاد ، غير أنه رغم صعوبة تحديد المعمل الذي سكت فيه هذه القطع ، يظل الاعتقاد السائد أنها تنتمي لبلد إفريقي كان منفتحا في آن واحد ، أمام كل من التأثيرات اليونانية والفينيقية . ونحن نعلم ، إضافة إلى هذا ، أن الممالك النوميدية كانت خلال القرنين الثالث والثاني قبل الميلاد ، ملتقى للحضارتين العظيمتين اللتين كانتا تسودان تلك الحقبة ، الفينيقية واليونانية . وبناء عليه ، فإن القطع النقدية المذكورة يعتقد أنها كانت تعود إلى إحدى الممالك النوميدية أو الموريتانية التي عاصرت تلك الفترة .

هل الأصل مصري ؟

إن سلالة « الليبو » Libou أو « الروبو » Rebou ، ترجع على أية حال إلى الحقب المصرية الموغلة في القدم . ومن خلال

« هيرودوتس » أول مؤرخ إغريقي . وثيقة روجي فيولي . باريس .

معاينة الوثائق المتوفرة في الوقت الراهن ، يتبين أن النصوص الهيروغليفية المصرية هي التي تتضمن أقدم الدلائل ذات العلاقة بهذه السلالة . ويظهر أن الاغريقيين لم يزيدوا عن أن نقلوا هذه التسمية عن الكتابات والاستعمالات المصرية القديمة .

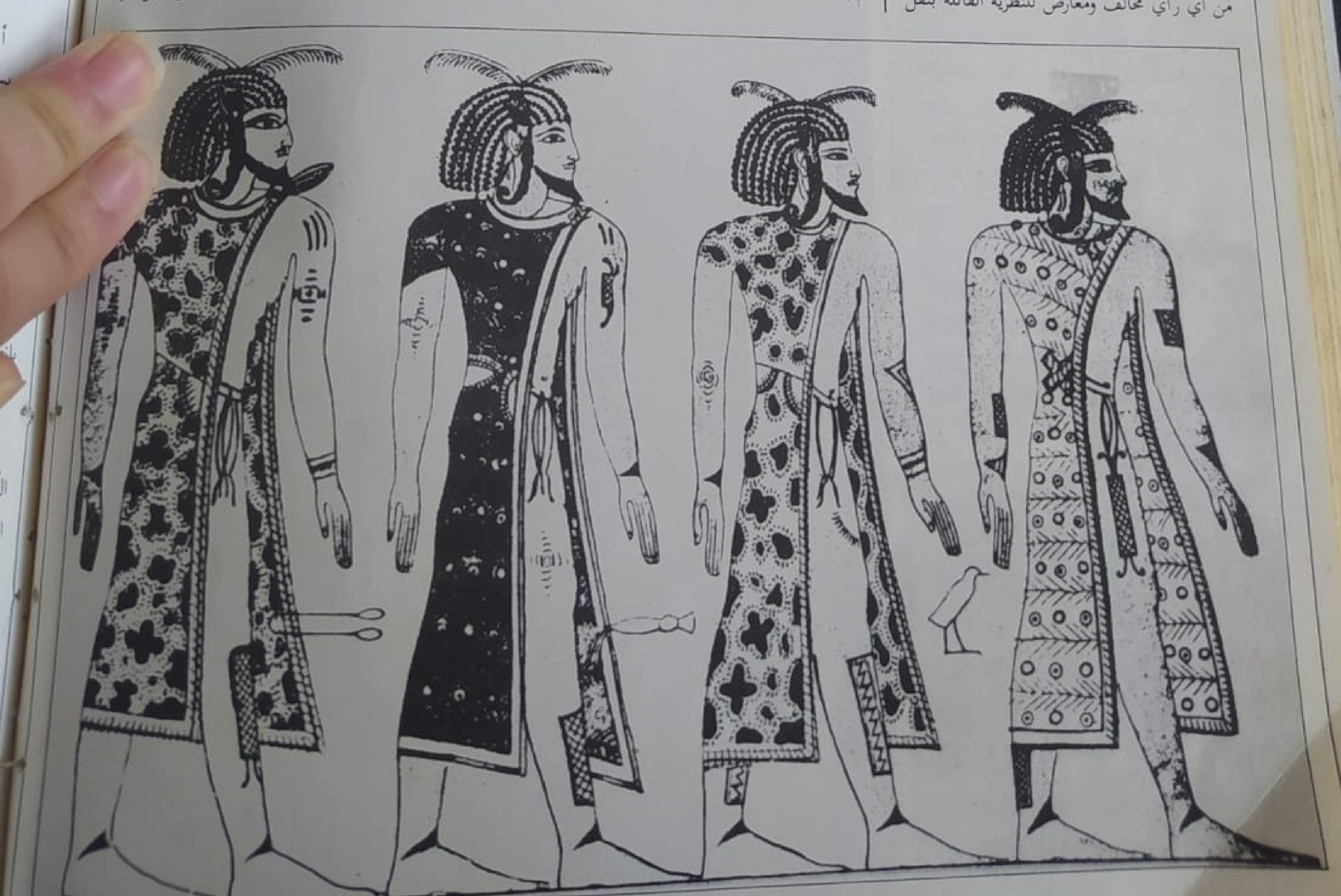
وفيما يتعلق بالانجيل يظهر أن محتواه يساند هذه النظرية ، اذ يفيد أن سلالة « اللياهيم » (Libahim) . تعتبر شبيهة بسلالة أبناء (Miraim) . وأما في الكتابات الأخبارية القديمة ، فإن « الليبيين » يشار إليهم كمحاربين في صفوف الجيوش الفرعونية . وفي الأوديسة ، يشار إلى الليبيين أو ليبيا على السواء ، صحبة الاشارة إلى مصر . لهذا فإن الانجيل يبدو خاليا من أي رأي مخالف ومعارض للنظرية القائلة بنقل هذه التسمية عن المصريين . وكذلك الأمر بالنسبة للمدن الفينيقية الشرقية . أما بخصوص الاغريقيين ، فلا شيء يمنع من التفكير في وجود وسيط فينيقي بين الأوديسة الاغريقية ومصر الفرعونية .

وعلى هذا المنوال قد يجد المرء نفسه أمام تسلسل عرقي على الشكل الآتي : مصريون قدامى ، ثم فينيقيون ، ثم إغريق . وتبدو هذه النظرية – دون أن يقتصر عليها وحدها – جديرة بالاعتبار .

فهل يتطلب الأمر – نظرا لوجود هذه العناصر – تأكيد انتماء أصل سلالة« الليبو » الى المصريين ؟ وهل يمكن القول بأن الفضل في كينونة هذه السلالة يرجع الى مصر الفراعنة ؟

إن الشواهد الأكثر قدما والمتصلة بلفظ « الليبو » يمكن إرجاعها ، حسب ماتوصلت إليه الأبحاث في الوقت الراهن ، إلى المصريين . غير أن هذا لايكفي لأن يسمح بأن ينسب إلى هؤلاء فضل اختراع هذه التسمية ولا حتى اشتقاقها من أصل مصري . لذلك استوجب الأمر أن يتم البحث عن أصل هذا اللفظ في لغة سكان شمال إفريقيا الأصليين .

إن تسميتي « ل ب ي » "LBY" و « ل ب ت » "LBT" العرقية تظهَرانِ في الكتابات القرطاجية بكثرة ، ويمكن ترجمتها



زعماء ليبيون . رسوم قبر سيتي « Séti » ، نحو 1300 سنة ق . م .

أصل أهالي شمال افريقيا

بليبي وليبية . ويعبر حامل هاتين التسميتين في آن واحد ، عن الشعور والاعتزاز بالانتماء إلى المجمع ، والاحساس بنوع من التعصب العرقي ، وهذا يكون بمثابة تعبير عن الأصل . ولا يمكن أن يصل الظن بالمرء إلى إحتمال أي كان لألفاظ أجنبية للتعبير عن مشاعره وعواطفه ، إذ الشعوب تميل على العموم إلى تفضيل تسمية أصيلة تكون متفقة مع أصالتها العرقية والاجتماعية .

وهذا هو السبب الذي من أجله نحاول أن نجد لتسمية « ليبي » أصلا محليا تعمق استعماله وترسخ الأخذ به وتبنيه .

لفظ « أفـــر »

أفر « Afer » وهو اللفظ الثاني الذي كان يستعمل للدلالة على السكان الأصليين . وفي هذه الحالة ، يكون لفظ افريقيا (Africa) دالا على المنطقة . وهذان اللفظان يعتبران معا حديثين ولا يمكن أن يعودا إلى أبعد من القرن الثالث ق . م . ففي سنة 202 ق . م . ، حظي سيبون الذي انتصر على حنبعل لقب إفريقي (Africanus) الذي كان بمثابة تذكير بانتصاراته على أرض افريقيا خلال الحرب البونيقية الثانية .

ويظهر أن تسمية إفريقيا نفسها اشتقها اللاتينيون من اسم أفر Afer . الذي نجده لدى الشاعر « بلوت Plaute » (أو ماكوس بلوتس Maccus Plantus) خلال ما بين 254 و 184 ق . م . بينما لقب الشاعر اللاتيني الهزلي تيرانس نفسه « أفر » للتذكير بأصله الافريقي الذي كان يبدو عليه أنه معتز بالانتماء اليه . ويمكن على أية حال ملاحظة غياب هذه التسمية العرقية في الوثائق الاغريقية والقرطاجية المتوفرة في الوقت الحالي . ويبدو أن الرومان هم أول من استعمل لقب « أفر » بل ان تسمية إفريقيا بدورها اشتقت من طرف الرومان الذين ربما كانوا يعنون بها الأراضي التي قاموا بغزوها بعد تدمير قرطاجة سنة 146 قبل الميلاد .

وللبحث عن أصل « أفر » و « أفريكا » اتجه التفكير الى الكلمتين أبريكا وأبريكوس (Aprica-Apricus) اللتين تعنيان « مشمس ومشمسة » وهذا المفهوم يتناسب ومناخ افريقيا المتسم بالحرارة . وقد ذهب المؤرخون العرب في العصر الأوسط إلى ابتداع شخصية بطل خرافي باسم « افريكوس » أو « افريقش » الذي قد تكون تسمية هذه المنطقة مستمدة منه .

وقد حاول البعض ربط لفظ أفريكا بأصل عربي يعود إلى كلمة « فرق » التي تحمل مدلول التفرقة ، ومفهوم الانفصال . بينما يعتقد باحثون آخرون أن « أفر » « قد يكون في الأصل « أفري » الذي كان يظهر في أشكال مختلفة هي أفريراس » ، وايف ايرا ، وأفراو ، وافروس .. وقد يكون هذا اسم ابن « كرونوس » و « فيليرا » (Cronos et philyra) أي ابن ابراهام وكيتورا . وهذه المقولة الأخيرة جاء بها فلافيوس يوسف Flavius Josèphe في القرن الأول الميلادي ، ضمن مؤلفه « العصر اليهودي القديم » .

قدم « ساتاسب » « Sataspe » الى مصر ، على متن مركب به ملاحة ونوتيون أخذهم من مصر وأبحر صوب أعمدة هرقل (مضيق جبل طارق) . وبعد أن أجتازها وعبر رأس ليبيا المسمى بـ « صولويس – Soloeis » أوغل في اتجاه الجنوب .

وبعد عشرة أيام من الابحار ، وجد أمامه أكمة من الملح ، ثم الماء ، حيث كانت تقيم مجموعات بشرية . وعلى مقربة من أكمة الملح هذه ، يوجد جبل هو الاطلس . كان الجبل متجمعا على نفسه مستديرا وقد بدا أن المرء لا يستطيع أن يرى قمته لفرط علوه . إذ لم تكن السحب تبرح قمته سواء في الصيف أو في الشتاء . كان الاهالي يعتقدون أنه يوصل الى السماء . وقد كان هؤلاء الاهالي يستمدون اسمهم من هذا الجبل ، إذ أطلق عليهم فعلا إسم « الاطلسيين » . وقد قيل انهم لا يتغذّون على الكائنات الحيوانية وليست لديهم أوهام .

كان القرطاجيون يحكون أيضا : أن بليبيا ، فيما وراء أعمدة هرقل ، يعيش أناس كان القرطاجيون ينزلون لديهم بضاعاتهم كلما قدموا اليهم ، فيضعونها على طول الساحل ثم يوقدون النار لاثارة دخانها . وكان الاهالي كلما شاهدوا الدخان يتقاطرون الى عين المكان فيبتاعون من تلك البضائع مقابل قطع من الذهب ثم يولون بعيدا . كان القرطاجيون انذاك يحطون رحالهم ويفاوضونهم الاثمان ، والا ، كانوا يعودون الى مراكبهم فينتظرون إلى أن يعود الاهالي اليهم ليزيدوا في حجم عروضهم من الذهب إلى أن يتم التراضي بين الفريقين . ولم يكن لدى كلا الطرفين أي غش أو خداع ، إذ لم يكن القرطاجيون يضعون أيديهم على الذهب ما لم يتبينوا أن أثمان بضائعهم سددت كاملة ، كما أن الاهالي لم يكونوا يمسون السلع قبل أن يتمكن الطرف الثاني من الذهب .

هيرودوتس VI ، 184،43 – 196 .
انظر « ر.روجي » في مؤلفه « المغرب عند الكتاب القدامى »

وفي رواية أخرى تعود إلى الجغرافي « سولان » « Solin » (القرن الثالث الميلادي) يبدو « أفر » اسما لابن هرقل الليبي .

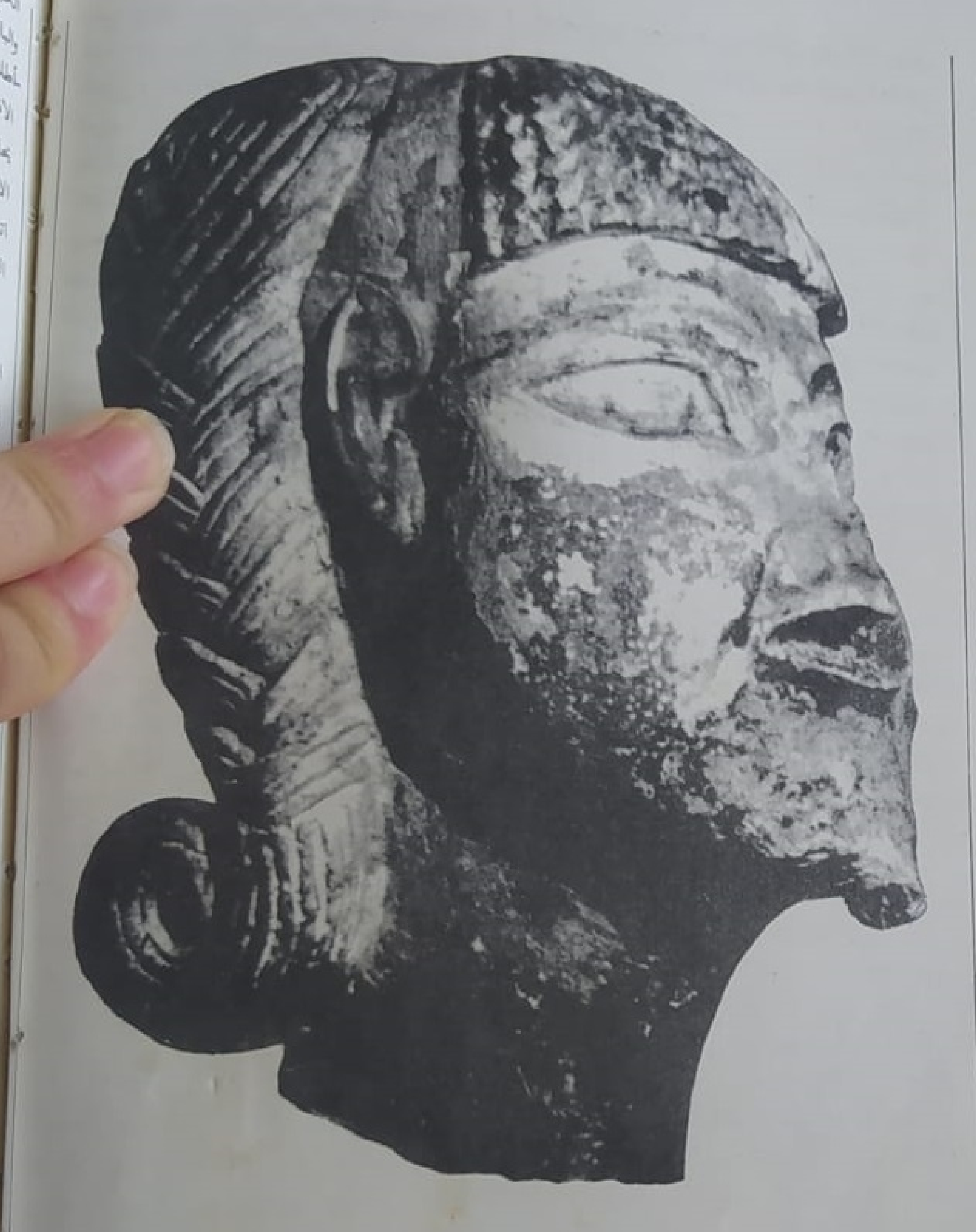
على كل ، وحسب ماتوصلت اليه الأبحاث في الوقت الحالي ، يظل من المستحسن الاتسام بذلك النوع من الحكمة ، التي التزمها المؤرخ « ستيفان كزيل » اذ أنه بعد تحليل دقيق للمعطيات المتوفرة في هذا المضمار ، لم يملك إلا أن يسجل* اعترافه بأن اشتقاقية لفظ « أفري » « AFRI » تظل مجهولة باستمرار .

« بربر »

استدعت كلمة « **بربر** » التي يستعملها المؤرخون المعاصرون للدلالة على أهالي شمال إفريقيا الأصليين ، عددا من النظريات المختلفة باختلاف النزوات والنزعات والأهواء . وتجدر الاشارة بادئ ذي بدء ، إلى أن السكان المغاربة الحاليين ونعني بهم أولئك الذين يعتبرون أنفسهم من أصل بربري ، يرفضون أن يطلق عليهم هذا الاسم ، ويفضلون تسمية (شلح جمعها شلوح) أو أمازيغ (جمعها ايمازيغن) . فبالنسبة لهم يظل اسم بربر أو برابرة لفظا أجنبيا إستعمل خارج البلاد للاشارة إلى سكان الشمال الافريقي .

ويرى المؤرخون ، بشكل عام ، أن أصل كلمة بربر يعود إلى الاغريق والرومان . فاليونان كانوا يستعملون كلمة « بربروس Barbaros » (جمعها بربروا) للدلالة على الأجانب الذين لا ينتمون إلى الحضارة الاغريقية (اللغة ، والتنظيم السياسي ، والثقافة الأغريقية) .

أما الرومان فإنهم كانوا يستعملون كلمة « بربروس Barbaros » كما يقول كزيل « للاشارة الى البلديين الذين ظلوا مقاومين للحضارة اللاتينية ، ورافضين للهيمنة الرومانية » . وليس من الصائب في شيء أن يظن المرء أن الرومانيين



رأس محارب ليبي ، نحت مصري . عهد رمسيس الثاني . متحف اللوفر . باريس . « كامس » .

إستخدموا هذا اللفظ للاشارة إلى جميع سكان إفريقيا الشمالية .

فقد أبرزت معاينة النصوص والمدونات اللاتينية أسماء عدد كبير من الشعوب Gentes والأمم Nationes دون أن تطلق إسما عاما جامعا على هذه الشعوب والأمم . وهكذا وجدت تسميات مختلفة كنوميديين ، وليبيين ، وأفري ، وموريين ، وجيتوليين ... كدلالات على الشعوب

أصل أهالي شمال افريقيا

الكبرى ، ثم تسميات أوتولول ، والمازيس Mazices والباقات ، للدلالة على القبائل والعشائر . وقد أطلق الرومانيون إسم البربر على سكان الأراضي الافريقية الذين رفضوا الاحتلال الروماني وانبروا يحاربون روما بمجرد أن وطأت جيوشها الأرض الافريقية . وكانت هذه التسمية تتقلص كلما اتسعت المجالات الترابية الافريقية للاحتلال الروماني .

وتجدر الاشارة هنا إلى أن لفظ بربر باللغة العربية ينحدر من « بارباري – Barbari » التي إستعملها اللاتينيون ، كما إشتقت منه كلمة « بربير Berbère » المستخدمة لدى الاوروبيين . ويمكن أن يعتبر تاريخ الفتح الاسلامي (647 م .) بمثابة نقطة انطلاق وظهور لفظ بربر كتسمية سلالية تشمل مجموع سكان إفريقيا الشمالية ، من « سيرت » إلى المحيط الأطلسي .

وقد حاول المؤرخون العرب ايجاد تفسير لكلمة بربر والبحث عن أصلها . ويمكن تقسيم وجهات نظرهم إلى قسمين اثنين : أولهما يفيد بأن كلمة بربر أو برابرة تعني اللجلجلة أو التغتغة ، والثاني يفسرها ، حسب عادات المؤرخين ، بتقسيم البرابرة إلى شجرات عرقية (أنساب) وقد ربطوا الشعب البربري بأب مشترك كان يدعى « بروبور » كما قال ابن حازم ، أو بربر كما أورد السّلي . وهكذا تولد علم الأنساب بالمغرب ، هذا العلم الذي أكد وجوده منذ القرن الرابع الهجري .

ويربط المؤرخون العرب البرابرة بالشرق الأدنى . فبعضهم يرى أن البرابرة من أصل كنعاني ، وأنهم كانوا قد غادروا كنعان على إثر هلاك جالوت على يد داوود عليه السلام . بينما يرى البعض الآخر أنهم ينحدرون من اليمن الخ ...

أما ابن خلدون ، فقد أحسن صنعا إذ استعرض مختلف النظريات المتعلقة بأصل البربر ، فأفاد بأن المرء إذا حاول أن يسير إلى الوراء عبر الأزمنة الغابرة لمعرفة أصل البرابرة ، فإنه لابد سيلاحظ الانقسام الكبير والاختلاف الشاسع اللذين تنطبع بهما آراء واتجاهات علماء النسب ، الذين كرسوا لهذا الموضوع دراسات مسهبة ومطولة .

وهكذا نجد أن جميع النظريات الواردة في هذا الشأن تتفق على ارجاع البربر إلى الجنس السامي . وقد خلص ابن خلدون إلى القول بعد أن استعرض جميع النظريات المذكورة : « والحق الذي لا ينبغي التعويل على غيره في شأنهم أنهم من ولد كنعان بن حام بن نوح عليه السلام ، وأن اسم أبيهم مازيغ ... »

ويظهر بالاضافة إلى هذا ، أن البرابرة إكتسبوا أنساباً كنعانية بفعل تأثير الحضارتين الفينيقية والقرطاجية ، اللتين انتشرتا في افريقيا الشمالية بشكل واسع . وقد ذكّر القديس « أوغستين » بهذه الانساب في احدى رسائله فقال : « ...وهكذا ، اسألوا مواطنينا عن هويتهم ، فيجيبوكم بلغة قرطاجية قائلين : نحن كنعانيون » .

وتجدر الاشارة إلى أن المؤرخين العرب الذين عاصروا القرون الوسطى ، كانوا يربطون البرابرة بكنعان . وليس من الجرأة في شيء تسجيل التأثير الذي أحدثه الأدب المسيحي أو اليهودي في أعمال مؤلفي القرون الوسطى ، التي تعود اليها كتابات فلافيوس يوسف Flavius Josèphe والقديس هيبوليت وغيرهما . ومن المؤكد في هذا المضمار ، أن المؤرخين العرب الذين عاشوا تلك الحقبة اقتبسوا كثيرا من الأدب اليهودي . ويظهر أن المسيحيين واليهود الذين اعتنقوا الاسلام لابد قد أسهموا بما لديهم من مكتسبات ثقافية أصلية في عديد من المجالات ، خصوصا عندما تكون هذه المكتسبات الثقافية متمشية مع رؤيتهم الدينية والايديولوجية الجديدة .

أصل السكان

بعد دراسة الألفاظ المختلفة التي تشير الى الأهالي الأصليين لشمال افريقيا ، يجدر بنا الانتقال إلى جانب آخر يكتسي بدوره طابع الأهمية ، هو استعراض النظريات المختلفة التي تبحث في أصول سكان هذه المنطقة . وفي هذا الشأن ، يبدو من الضروري أن نشير إلى أن الآراء والنظريات التي وردت في هذا الموضوع غالبا ما تعكس الاتجاهات الايديولوجية ، وكذا العنصرية ، لكاتبيها ومؤلفيها الذين تأثروا بدورهم بالمناخ السياسي السائد .

وتنقسم هذه النظريات إلى ثلاث رئيسية : فالأولى تربط سكان الشمال الافريقي بأوروبا ، والثانية تلحقهم بالشرق الأدنى ، بينما ترجعهم الثالثة الى المنطقة نفسها (أي افريقيا الشمالية) أو الى الصحراء .

وعلى أية حال ، فانه من المستحسن أن نشير إلى الضعف الذي يتحتم أن تكتسيه كل محاولة للبحث في نسب هذا الشعب عن طريق اعتماد انتسابه العرقي ، وكذا الخطر الذي يمكن أن يُحدق بهذه العملية فيجهضها . فكل الأبحاث التي تأخذ هذا الاتجاه تبوء حتما بالفشل . لأن هوية الشعوب هي ثقافتها وحضارتها . وهذه الثقافة هي التي تكون شخصية الشعب وتفسح أمامه المجال للتوزع على عائلات وأسر وعشائر . ولأن النسب هو قبل كل شيء ثقافة وحضارة معينتين .

منذ غزو فرنسا للجزائر سنة 1830 ، حاول الباحثون الغربيون بدون جدوى ربط البربر بأصل أوروبي . وهذه النظرية قام بترويجها جنود وموظفون بالاضافة إلى بعض الناشرين ، كما أنها كانت نتاجا مباشرا للسياسة الابتلاعية Assimilationniste **المبنية على التعصب العرقي . وقد كان الكل يرى أن سياسة التمثل**

الموريون حسب التسمية الرومانية والاهلية – هم شعب ليبي كبير وغني ، يفرقهم مضيق عن إسبانيا ، حيث يوجد بالفعل مضيق أعمدة هرقل (جبل طارق) الذي تطرقنا إليه فيما سلف . فحينما نكون مجتازين لهذا المضيق ، نجد ليبيا على اليسار ونشاهد جبلا يطلق عليه الاغريق اسم الاطلس ، ويسميه البربر « ديريس » . وفي هذا الموقع يمتد جيب جبلي داخل البحر صوب موريتانيا التـي كان يطلق عليهـا اسم « كوتيس – Côtes » . وعلى مقربة من هذا المكان توجد مدينة صغيرة تشرف على البحر تسمى « ترانكس – Trinx » لدى البربـر ، وتسَمـى « لينكس – Lynx » لدى « أرتيميدور Artémidore » ثم « لكسوس » عند « ايراسطوسثيـن – Erastostheine » . وتقع قبالة « غاديرا – Gadira » التي يفصلها عنها ذراع بحري طوله 800 غَـلْوة (Stades ، وهي وحدة قياس بحرية قديمة) ، وتفرق المدينتين معا عن أعمدة هرقل نفس المسافة .

كانت كل الدلائل تشير أن « موريسيا » (بلاد الموريين) غنية ومزدهرة ، باستثناء جزء صحراوي قليل الاهمية ، وقد أنعم عليها الله بالانهار والبحيرات . وهي وافرة الغنى في مجال الغابات العالية والكثيفة التي تنبث فيها جميع أنواع النباتات ، اذ هي التي تجهز الرومان بطاولاتها الكبيرة ذات القطع الواحدة المتعددة الالوان .

ويحكى عن هذا البلد أنه تنبت فيه كرم قد لا يستطيع رجلان أن يطوقا داليته بأذرعهما ، ويعطي هذا الكرم عناقيد يصل طول الواحد منها حوالي الذراع ، وجميع أعشاب هذا البلد ونباتاته طويلة وشامخة .

ويغذي هذا البلد جميع أنواع وفصائل الافاعي والفيلة والغزلان وكذا الاسود وغيرها من الحيوانات . ويعيش فيه حيوان يشبه القطط لولا مقدمة البارزة قليلا . ويوجد به عدد كبير من القردة . وبخصوص هذا النوع الاخير يحكي « بوزيدونيـوس – Posédonius » بأنه وجد نفسه عند انطلاقه من « غاديرا » بايطاليا يحط بليبيا ، حيث شاهد غابة شاسعة متسلسلة على الساحل ، مليئة بمختلف أنواع الحيوانات . فبعضها يعيش فوق الاشجار ، والبعض الاخر على الارض ، ومنها ما كان يأخذ صغاره في حضنه ويقوم بارضاعه . وقد كان هذا الرحالة يتملكه الضحك وهو يري نهود القردة المرضعة المدلاة . وقد كان من هذه الحيوانات ماهو مجرد من الشعر ، بينما كان منها المصاب بالفتق وبأنواع أخرى من النتوءات المشابهة .

هذه لا يمكن أن تؤول إلى النجاح مالم يكن بين البربر والأوروبيين أصل مشترك مهما بعد أمده ، وإلا فإنها لا تملك إلا أن تتعثر أو تدان .

كانت هذه النظرية تحتل حيزا كبيرا ، وسادت خلال القرن التاسع عشر عن طريق أبحاث غويون Guyon وفيدهيرب Faidherbe وبرتراند Bertrand ، وغيرهم .. وقد اكتشف الجراح غويون سنة 1946 بقايا بشرية ببني مسوس بالجزائر ، ودون أن يكون للأمر علاقة بالتشريح قال غويون : « ان لها نفس الآثار « الدارويدية » التي عاينتها لدى الانسان الموجود بسومير ومناطق أخرى في فرنسا . وكذلك ، فان بعض علماء الآثار يرجعونها إلى الغاليين Gaulois الذين كانوا يعملون في صفوف الجيوش الرومانية ، كما يمكننا أن ننسبها إلى الوندال ... »

وعند بداية النصف الثاني من القرن التاسع عشر كانت كل العناصر والدلائل قد قدمت لأجل تبرير انتماءها إلى الاصل السَلتي Celtique وبالتالي الفرنسي .

أما الجزال فيدهيرب ، فقد أكد أن دلمن Dolmens (وهو نصب ماقبل تاريخي) رخية بالجزائر يضم بقايا الليبيين القدامى ، أسلاف البربر ، ودعم مقولته هذه بإجراء مقارنة بين الجماجم التي عثر عليها بالدلمن المذكور ، وجماجم سكان المنطقة المعاصرين . وقد كانت فكرته الكبرى « أن البرابرة الذين أذخلوا هذه الدلمنات (Dolmens) لم يكونوا يقربون لا إلى السود ، ولا إلى الحاميين الكنعانيين ، ولا حتى المصريين (كما يقول برونرباي M.Prumer-Bey)ولا إلى الساميين (كما تعتقد إحدى المدارس) وإنما كانت لهم القرابة بالدرجة الأولى مع أهالي أوروبا الغربية » .

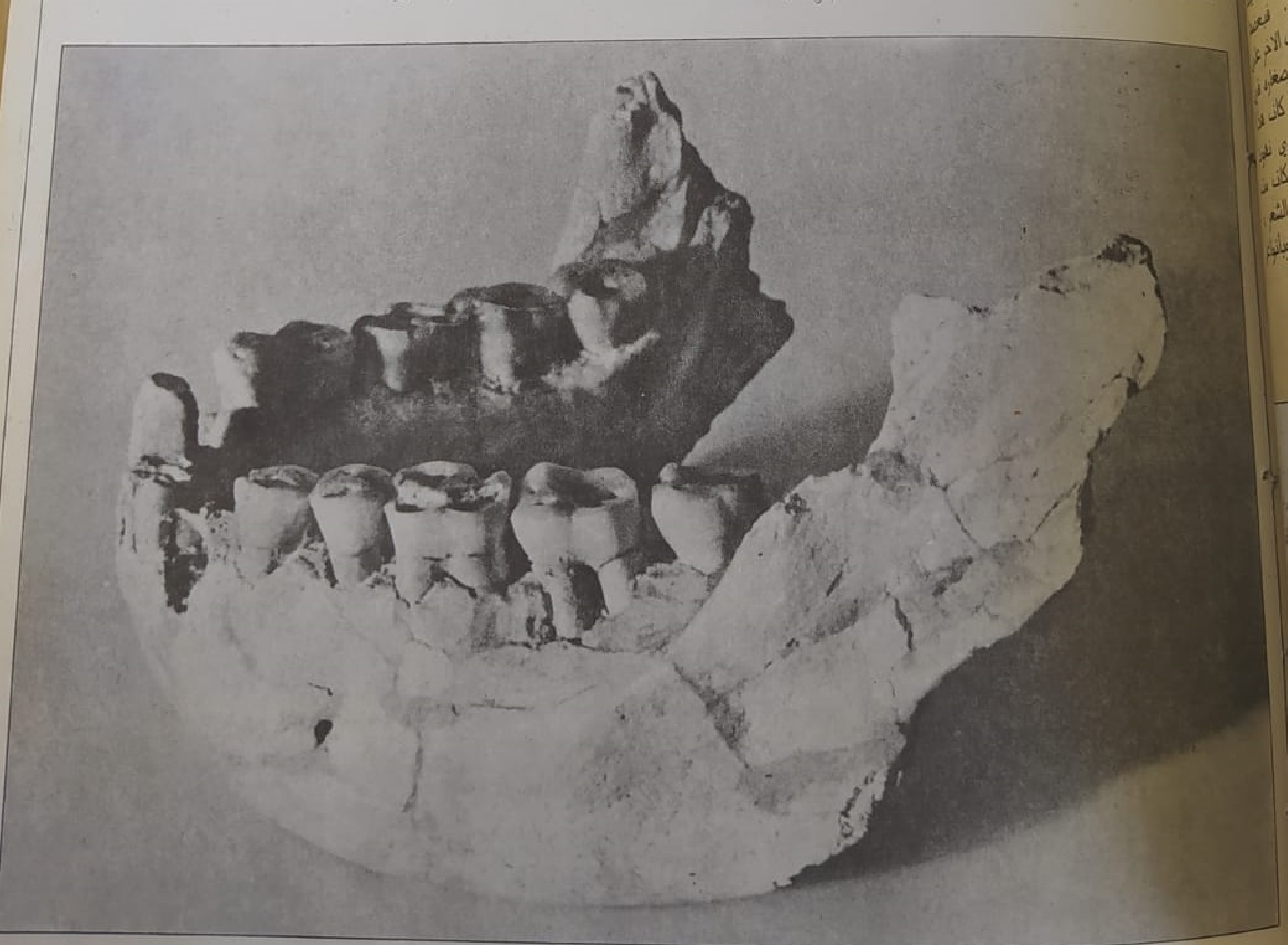
أصل أهالي شمال افريقيا

كان فيدهيرب يدعم رأيه بمواجهة فكرتين كبيرتين كانتا قويتين في تلك الآونة : الفكرة الأولى « للاسكندر برترادو » ، الذي كان يعتقد بوجود شعب يشيد الدلمات (Dolmens) جاء قبل السلتيين ، وقد طرد تدريجيا من آسيا ، وأوروبا الشمالية ، ومن الجزر البريطانية ، ثم من بلاد الغال واسبانيا ، ليحل بافريقيا الشمالية وينقرض بها . أما الفكرة الثانية ، فقد كانت « لهينري مارتان » الذي استند على اكتشافات علم الأثريات المصرية (Egyptologic) الحديث المنشأ ، ليعتبر أناس « تاماحوس » (Tamahous) الشقر بمثابة غاليين (gaulois) قدموا من إسبانيا ليحلوا بافريقيا الشمالية حيث يعتقد أنهم غرسوا حضارة العصر الحجري الوسيط قبل أن يتصدّوا لمصر . وكان يجب أن ينتظر إلى أن نحل سنة 1875 حتى تفنّد هذه الفكرة من طرف « هـ . دابو دوجوبانفيل » (H.D'Abois de Jubainville) .

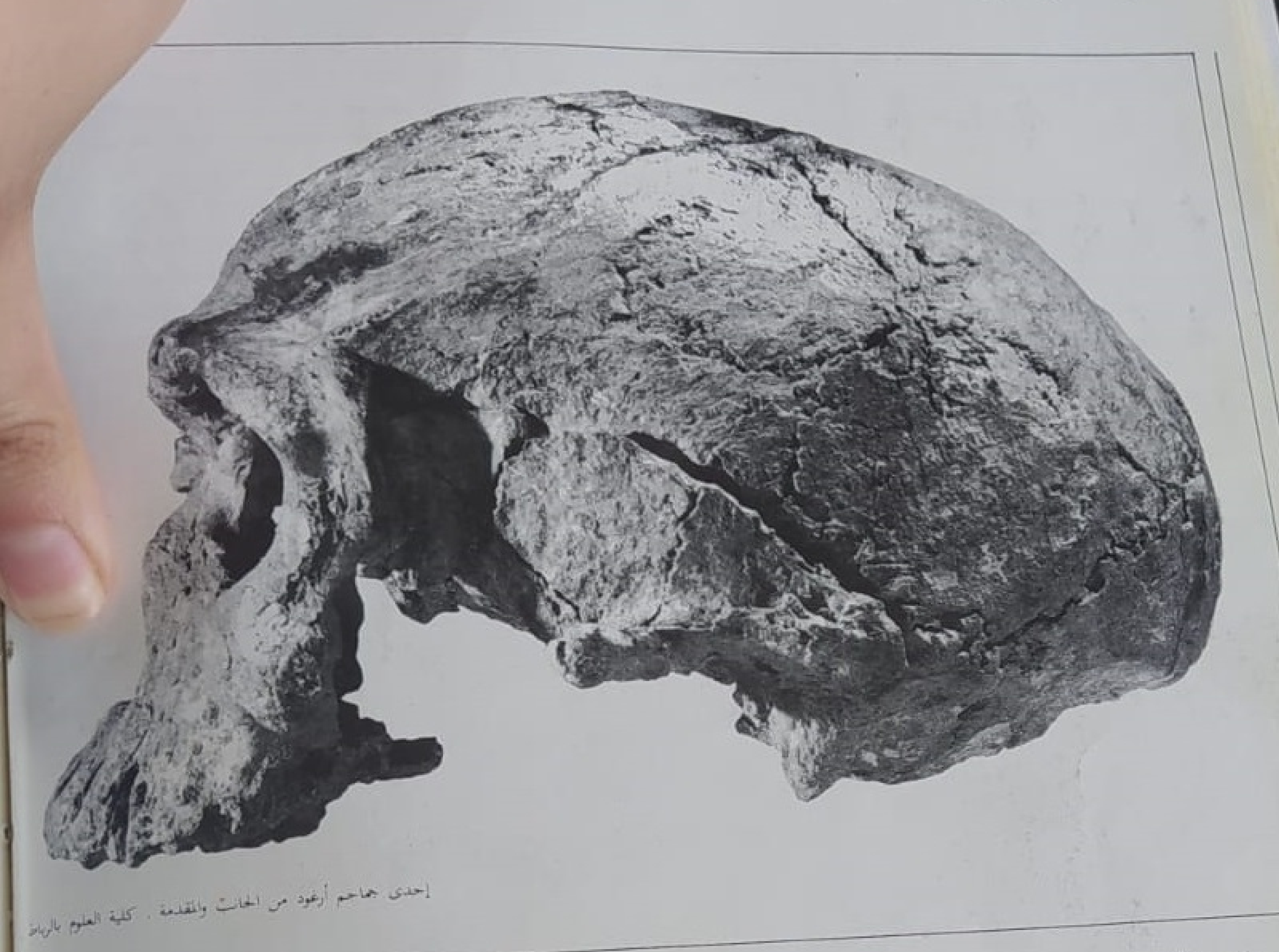
ولما بدأت هذه السياسة الابتلاعية تفقد رونقها وإغراءها جاءت نظرية الانتساب إلى السلالات الأسيوية لتحل محل الانتساب إلى الجنس السلتي Celtique . وبفضل مجموعة من العلماء استطاعوا أن يوفقوا بين الأبحاث من جهة وبين التشائم ، الذي كان يكتنفها من جهة أخرى ، تمكنت هذه النظرية الأخيرة من أن تستأثر بالنفوذ أكثر فأكثر .

القـرائـن الأثـريـة :

تمت الاكتشافات ، وجاء علماء الاناسة – لحسن الحظ – بعناصر أكثر رسوخا ربما ستمكن مع مرور الزمن ، وبفضل الأدوات التي ستكشف عن عصور ماقبل التاريخ ، من الاسهام في فك لغز وحل مشكل أنساب البربر .



افريقيا الشمالية من أقدم المناطق الآهلة : في سنة 1954 ، اكتشف هذا الفك الذي يعود الى أطلنتروب حد بداني في ترنيفين .
(مؤلف جزائر ماقبل التاريخ « بالو 1958 » . المكتبة العامة بالرباط .



إحدى جماجم أرغود من الجانب والمقدمة . كلية العلوم بالرباط

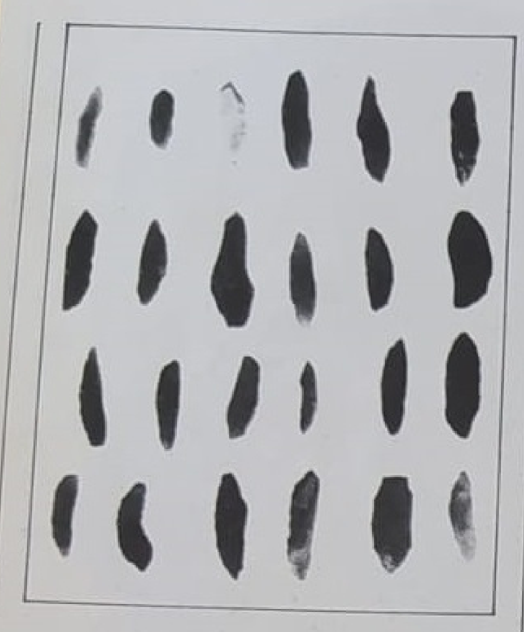
لقد مكنت الأبحاث التي أجريت حول عصور ماقبل التاريخ علماء الآثار من اكتشاف بقايا بشرية كانت تغطي مجموع هذه العصور ، من العصر الحجري القديم السفلي إلى الحجري الجديد .

وهكذا ، أعطت مواقع العصر الحجري القديم السفلي بقايا آدمية تعود إلى مابين 300 000 و 100 000 سنة ق . م . وترتبط بالجنس المعروف في افريقيا الشمالية بإسم « الاطلنثروب » . وهذا الأخير يشبه « البيثيكانثروب Pithécantrope » الذي عثر عليه بالصين ، وجافا Java وأندونسيا ، والذي يعود الى 700 000 سنة ق . م . وقد عثر على الاطلنثروب المغربي بسيدي عبد الرحمان ، وهي محجرة توجد قرب عين الذئاب بالدار البيضاء ، وقد عرف هذا باسم إنسان سيدي عبد الرحمان ، وفي العاصمة بإسم إنسان الرباط .

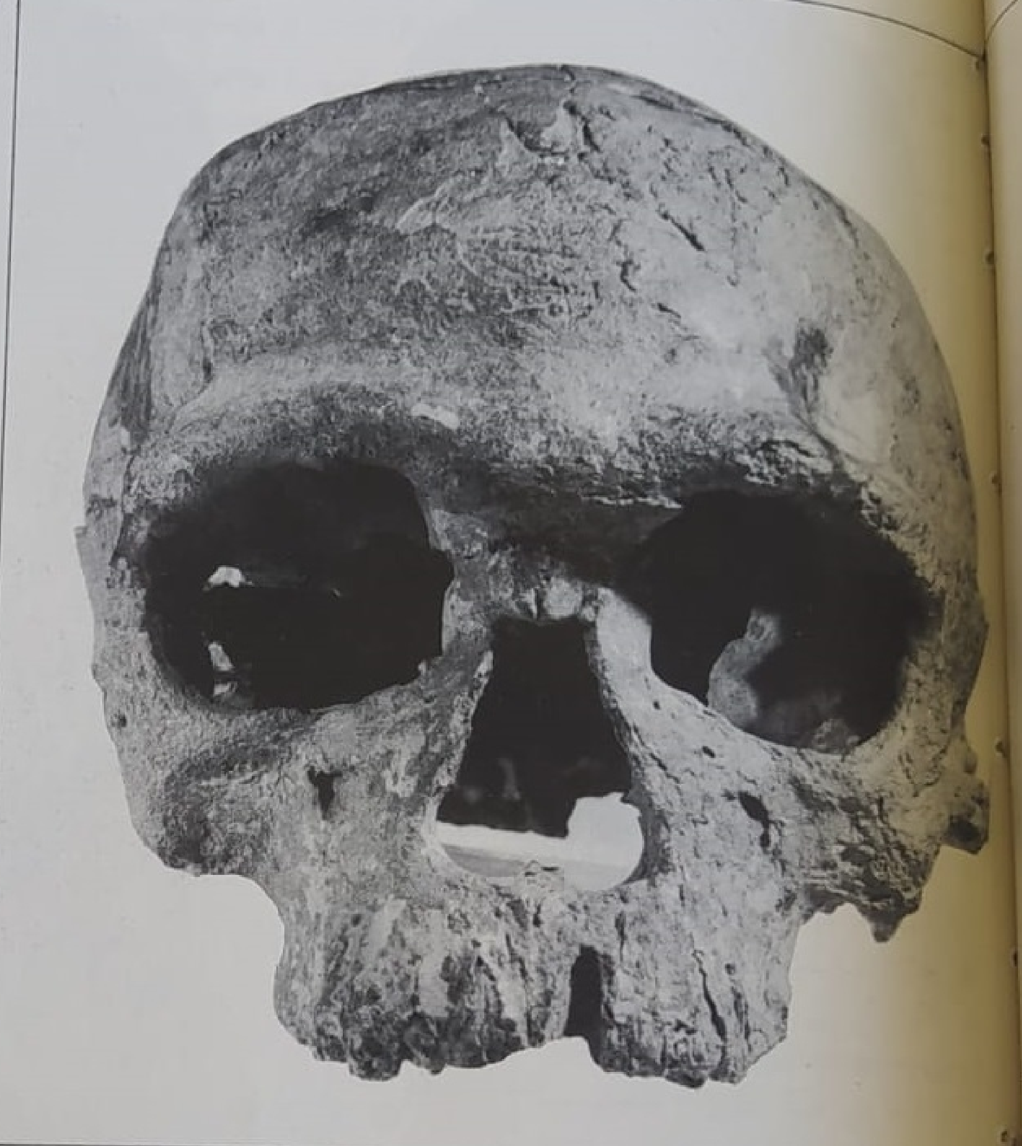
ومثل العصر الحجري القديم المتوسط انسان جبل أرغود ، قرب آسفي ، الذي يرجع إلى 50 000 سنة ق . م . والذي كان يعاصر إنسان نيانديرثال Néanderthal .

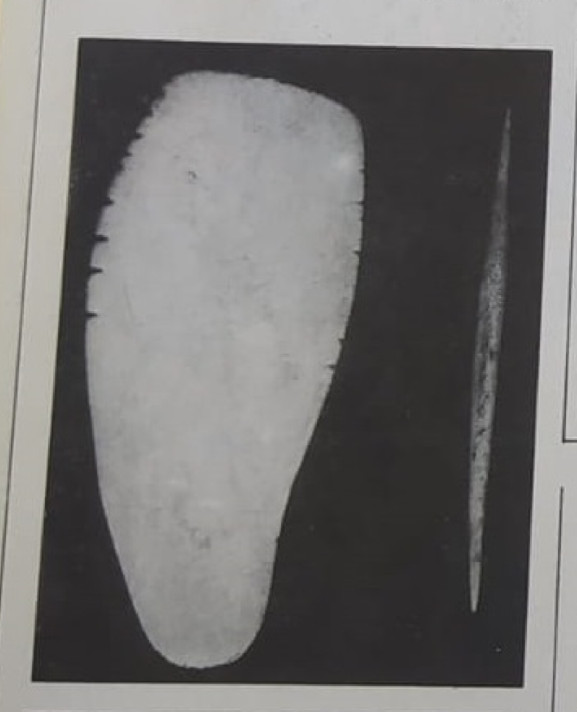
في العصر الحجري القديم العلوي ، كان المغرب الكبير مأهولا من لدن حضارات أصيلة . وتسمى إحداها بالحضارة « **الايبيروموريسية** » ، وتتميز بصناعة صغيرة تقوم على نصيلات وقطع هندسية الشكل (على شكل مثلثات أو مربعات منحرفة) كان بعضها يثبت على رؤوس أسلحة خشبية . وبعد أن احتل هؤلاء الايبيروموريسيون مجموع تراب شمال افريقيا ، وجدوا أنفسهم وقد صُدُّوا من طرف شعوب أخرى عرفت تحت إسم

أصل أهالي شمال افريقيا



صناعة ايبيروموريسية ، متميزة بالصغر والشكل الهندسي وبوجود إبر مصنوعة من العظم .
متحف الآثار بالرباط .



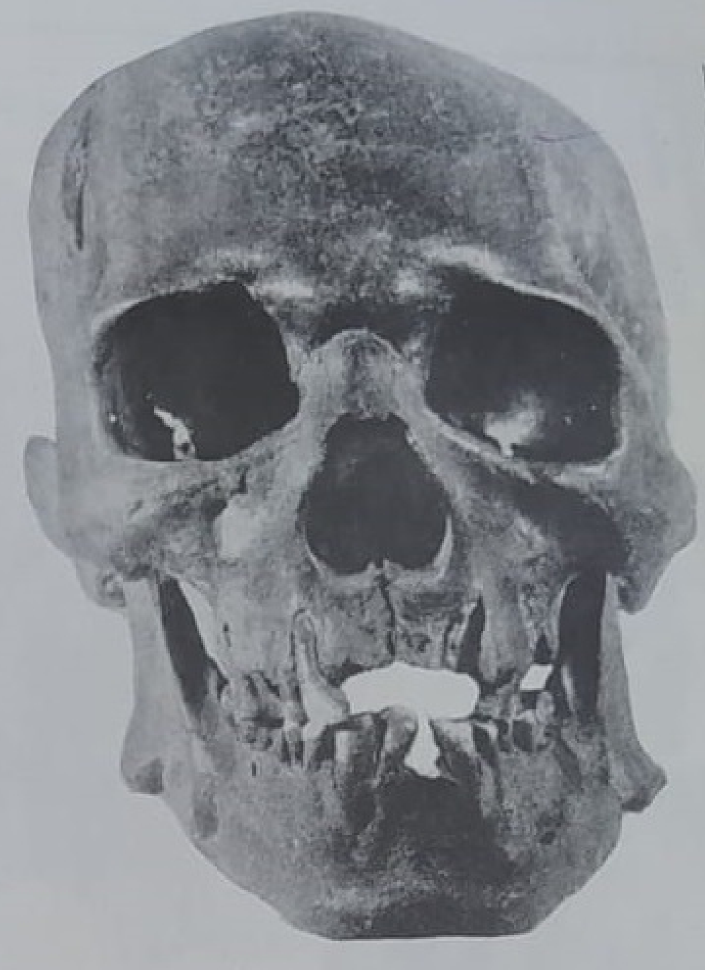


« **الكابسية** » ربما كانت قادمة من الشرق ، إلا أنها لم تصل إلى المغرب .

وقد تم تحقيق معرفة جيدة بالانسان الايبيروموريسي . فهو ينتمي إلى أصل يدعى مشطة العربي (وهو اسم مقبرة جزائرية) . وهذا الجنس يجاور سلالة الكرومانيون Gro-Magnon ، وهو لذلك قريب جدا من الانسان المعاصر .

كان لهذا الانسان ، قبلا ، حضارة حقيقية ، من بين مميزاتها الاهتمام بالحلي ، والقيام بعض الأعمال السحرية . وقد كان موتاهم يدفنون وفق شعائر معقدة ، إذ كان الاعداد لذلك يبدأ بخلع القواطع من الأسنان . وقد عثر على هذا الانسان أيضا بدار السلطان ، وتيط مليل ، والخنزيرة ، وعين فريطيسة ثم تافوغالت . ويظهر أن انسان مشطة العربي بلغ خلال هجرة أخيرة جزر الكناري ، حيث كون بها سلالة « **الغوانش** » Guaches التي كانت بمثابة الساكن الأصلي لهذه الجزر قبل مجيء الاسبان إليها .

أما الحضارة الثانية التي عرفها العصر الحجري القديم العلوي والتي تسمى « **بالكابسية** » Capsienne ، فقد امتدت عبر مناطق جد شاسعة من المغربين الأوسط والشرقي . واحتلت حضارات أخرى مجاورة لها أو متفرعة عنها منطقة قرينة Cynrénoïque . ولم تستطع الحضارة



الرجل النموذجي لمشطة العربي . (بالو 1958) . المكتبة العامة بالرباط

جمجمة امرأة كابسية شابة ، تظهر عليها آثار التشويه الناتج عن الطقوس الكابسية ، المتميزة بالكهنة والسحر . (بالو . 1958) المكتبة العامة بالرباط .

الكابسية أن تحتفظ فوق هذا التراب الشديد الاتساع وعلى امتداد المكان والزمان بنفس النمط الصناعي . فالانسان الكابسي لم يكن له في الأمكنة والأزمنة نفس النوع من الأدوات والآلات والتجهيزات ، إلا أن هذا الانسان نفسه هو الذي كان يدخل بين الحقبة والأخرى أنماطا من الصناعات الجديدة .

لقد مر كل شيء وكأن الأمر يتعلق بمجموعة بشرية متوسطية ربما قدمت من الشرق لتوسع مجالها الترابي شيئا فشيئا إلى أن بلغت المحيط الأطلسي . ويبدو من الصعب والعسير أن يعدل المرء عن ربط الحضارة الكابسية بهذا التحرك ، وألّا يبحث لها عن جذور قارية وشرقية .

وفي حضارة العصر الحجري الوسيط ، الفلسطينية ، يقدم الانسان « **الناطوفي** – Natoufien » خصائص هي نفس مميزات الحضارة الكابسية ، اذ أن هذه الأخيرة سبقت هذا الانسان بحوالي ألف سنة علىٰ أقل تقدير ، كما أن الانسان « الناطوفي » هذا يعد من أكثر سكان حوض البحر الأبيض المتوسط بدائية . وتوجد لدى هذا الانسان ، نفس السمات الزنجية التي تظهر من حين لآخر لدى بعض الأفراد الكابسيين . ويستخدم الانسان الناطوفي ، على غرار إنسان العصر الحجري القديم العلوي الموجود بالمغرب الكبير ، طريقة خلع قواطع الأموات قبل الدفن ، إلا أنها ، كما لدى الكابسيين كانت غير منتظمة .

إننا نجد لدى الانسان الكابسي ، الذي يبدو أن أصله الأول ينتمي إلى الشرق الأدنى ، قرابة متوسطية ، افريقية وشرقية .

وإلى جانب الحديث عن هذين العنصرين

(الايبروموريسي والكابسي) نشير إلى أن التنوع المناخي الذي شهدته افريقيا والصحراء خلال نهاية الفرم Würm حوالي 10 000 سنة ق . م . مع بداية حلول الجفاف بالصحراء ، اضطر المجموعات البشرية التي كانت موجودة بالمنطقة إلى البحث لها عن أرض أخرى تتوفر فيها المياه والمراعي . وهكذا اتجه بعضها إلى الشمال ، أي إلى المغرب والجزائر وتونس ، واتجه البعض الآخر إلى الشرق والجنوب . غير أن معظم هذه المجموعات فضلت البقاء حيث هي ، وأخذت تتأقلم مع هذا المناخ الجديد .

نظريات علم الانـاسـة :

هكذا ، عرف المغرب الكبير طوال العشر سنوات الأخيرة قبل ميلاد المسيح ثلاثة عناصر رئيسية ، فضلا عن العنصر الأصلي ، لعبت فيما بعد دورا هاما في تعمير هذه المنطقة . وهذه العناصر الثلاثة هي : الايبيروموريسي ، والكابسي ، والصحراوي .

فهل وجد هؤلاء الثلاثة لدى مجيئهم مجرد أرض خلاء ؟ الجواب لا بالطبع . ولقد رأينا ذلك فيما سبق ، اذ أثبتت **الاكتشافات الاناسية** Anthropologique **أن المغرب الكبير من البلدان الأكثر قدما من حيث تعميره (الاطلنتروب المكتشف بسيدي عبد الرحمان ، وترنيفين بالجزائر ، والرباط ، وإنسان جبل أرغود ، وإنسان أشقار ، وإنسان دار السلطان الخ ....)**

فماذا حدث إذن لهذه السلالات ؟ هل آلت إلى الذوبان في المجموعات المهاجرة القادمة إليها ؟ أم أنها انقرضت أو تحولت إلى رقيق ؟ كل شيء جائز ، غير أن الذي يتبادر إلى الذهن ، هو أن المجموعات الجديدة استعبدت السكان الأصليين ، وأطلقت على نفسها إسم أمازيغ (أي السيد أو الانسان الحر) ووجود تسمية « إنسان حر » تدعو منطقيا إلى التفكير في تواجد إنسان مستعبد .

بقي تحديد ما اذا كان السكان الحاليون للمغرب الكبير ينحدرون من أصل ايبيروموريسي ، أو أنهم من أصل كابسي ، أو صحراوي ، أوينتمون إلى مجموع الثلاثة في آن واحد ؟

إن الأبحاث التي أجريت حتى الآن تدعو في معظمها إلى الاعتقاد بأن المجموعات الكابسية دفعت الايبيروموريسيين بعيدا ، وهيمنت على مجموع التراب الشمال الافريقي منذ حوالي 50 000 سنة ق . م . ربما ، بفضل ما كان لديها من أسلحة متطورة .

وبما أن الكابسيين اعتبروا شرقيين ، فان المرء لايسعه في تحليله إلا أن يقترب من القول بوجود جذور شرقية للمغاربيين . وقد دعمت هذه النظرية اعتبارات أخرى مختلفة ومتعددة :

1 – إنه بعد اجراء الدراسة على خمسين جمجمة من اليمن ، تبين أنها تشبه بشكل يلفت الانتباه جماجم افريقيا الشمالية . ويدعو هذا التشابه إلى طرح السؤال التالي : كيف تم تنقل هؤلاء ؟ هل من اليمن إلى المغرب الكبير ، أم العكس ، أم أنهم انتقلوا من الصحراء إلى المغرب الكبير فاليمن فالشرق الأدنى ؟

2 – إن المصريين القدامى أشاروا في

كتابة تامودية . نصب عين جمعة .

كتاباتهم المدونة على ورق البردي إلى تجار من اليمن قدموا إلى ليبيا ، بعد أن اجتازوا الأراضي المصرية . كما ذكروا أنه بعد مدة من الزمن ، لحقت بهؤلاء التجار مجموعة أخرى من جنسهم قادمة من سبأ وكنعان عن طريق البحر . ومن الناحية التاريخية ، كانت طريق « حضرموت » و « مصر » و « ليبيا » البرية معروفة جدا ومستعملة من لدن المحنيين منذ عهد الأسرة المصرية الحاكمة الاحدى عشر (أي منذ الألفي الثاني ق . م .) .

3 – إن المؤرخين العرب يؤكدون بدون تحفظ أن البربر ليسوا من أصل شرقي فحسب ، وإنما هم من اليمن وكنعان .

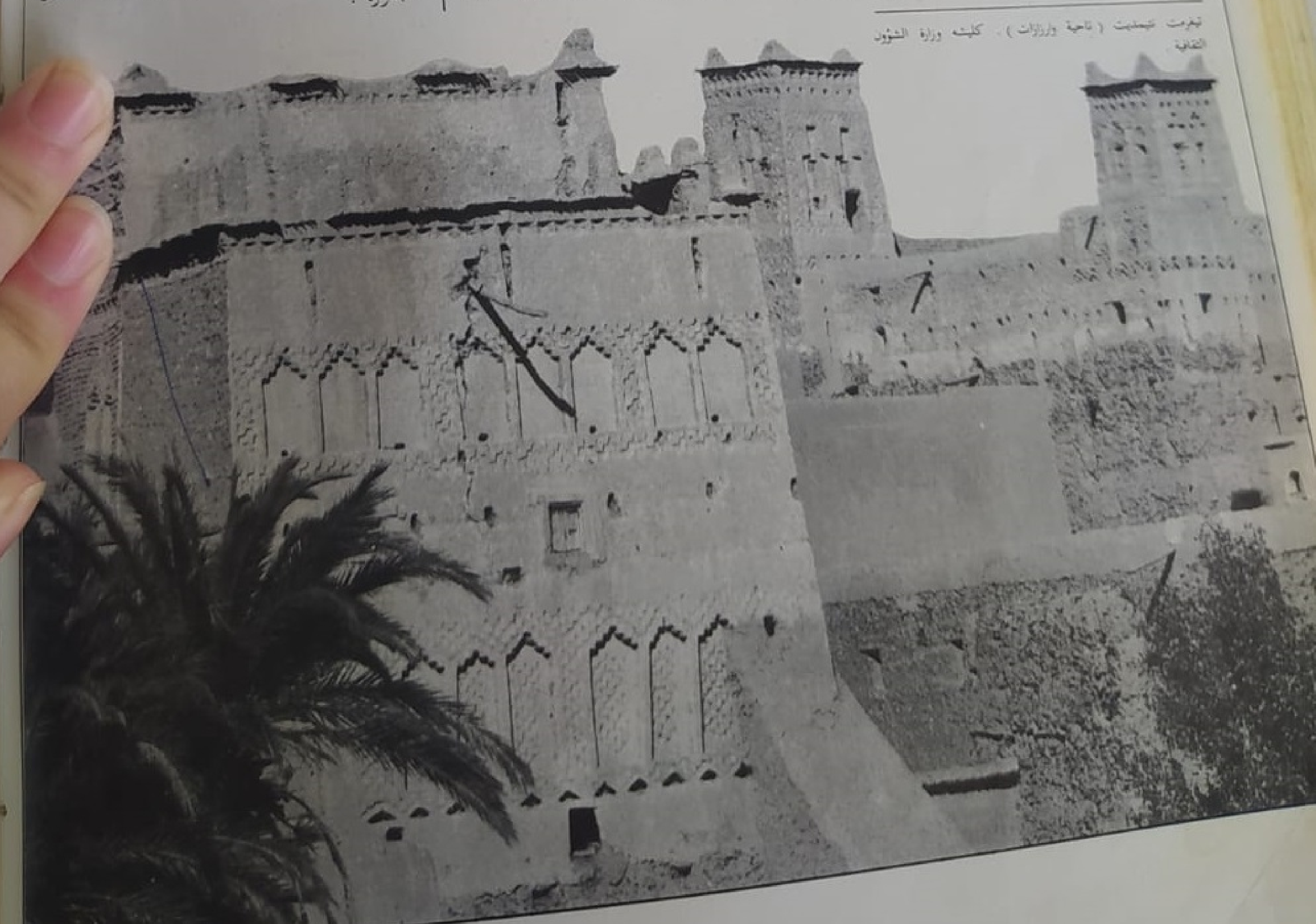
4 – إن « بوسكي » Bousquet أكد من جهته أن البرابرة لم يكونوا أول سكان إفريقيا الشمالية عندما دخلت هذه الأخيرة التاريخ .

5 – إن الكتابة « الليبية البربرية » المكتشفة في كل من ليبيا وتونس والجزائر والمغرب تم العثور عليها أيضا بمصر واقليم النوبة وحتى سيناء . وقد لاحظ الباحثون وجود تشابه بين هذه الكتابة وبين بعض كتابات شبه الجزيرة العربية ، ومنها الخط التامودي (Tamoudite) .

6 – بالاضافة إلى كل ذلك ، نضيف التشابه الموجود في النمط الهندسي المعماري بين شبه الجزيرة العربية (اليمان) وافريقيا الشمالية . أي بين القصور الصحراوية والحصون اليمنية ، كما نبه ابن بطوطة إلى ذلك في رحلته تحفة النظار . ويوجد هذا النمط أيضا في إقليم النوبة والسودان بمعنى ، أنه موجود على طول الطريق الرابطة بين اليمن وافريقيا الشمالية ، مرورا بباب المندب ، والحبشة والسودان وإقليم النوبة . ومن البديهي أن هذه الطريق كانت تستعمل في كلا الاتجاهين .

وانطلاقا من هذه المعطيات ، يحتمل أن يكون العنصر الشرقي – إذا كان شرقيا بالفعل – سائدا في افريقيا الشمالية . ويبدو أن هذه النظرية أقرب إلى الحقيقة بالنسبة لباقي النظريات ، إلا أننا نستطيع دوما أن نطرح المسألة التالية : هل ان معظم سكان شمال افريقيا من أصل شرقي ، أم أن الشرقيين هم الذين ينتمون في الأصل إلى افريقيا الشمالية أو على الأقل إلى الصحراء ؟ إننا نذكر أن الصحراء كانت فيما مضى مسرحا لحياة بشرية وحيوانية ونباتية قبل أن يضطر جفافها سكانها إلى الرحيل صوب المناطق المجاورة .

تيغرمت تيسمدنيت (ناحية ورزازات) . كليشه وزارة الشؤون الثقافية



أصل أهالي شمال افريقيا

ويصعب في الوقت الراهن إيجاد أجوبة نهائية على هذه التساؤلات. ومع ذلك، فأغلب الباحثين يؤكد أن البربر هم الذين ينتمون إلى الأصل الشرقي وليس العكس. ولابد لمن أراد تأكيد أو ترسيخ نظرية من النظريات من الالتجاء في أبحاثه إلى أساليب علمية أكثر تقدما.

وكيفما كان الحال، فإن شمال إفريقيا، لدى نهاية الحقب الحجرية الحديثة، كان يُؤوي جنسين من البشر:

– الأول ذو سمات متوسطية (جنس البحر الأبيض المتوسط) يحتمل أن يكون منحدرا من الانسان الكابسي، وهو في حالة انتشار واسع،

– والآخر يحتفظ بالخصائص الواضحة للانسان الايبيروموريسي. وهذا الجنس له من الصلابة والصمود ما جعله يترك، وخلال قرون طويلة، سماته المتميزة في صفوف الشعب المتولد عن انتشار وتكاثر السلالة المتوسطية.

ويجب والحالة هذه، ألّا ننسى أن المكونات الرئيسية لاهالي شمال افريقيا تعتبر إلى يومنا هذا منتمية إلى البنيات الموغلة في القدم، التي كانت خلال فجر التاريخ متواجدة بأساليبها الاجتماعية، وأنماطها المعيشية وتنظيماتها السياسية والادارية، وعقائدها ودياناتها ولغاتها، وتقاليدها وأخلاقها وأذواقها وميولها، المُستفيدة جميعها وباستمرار من إسهامات الأجناس والحضارات المختلفة التي لا يفتأ التاريخ يسحبها معه لاعادة تجسيم وقولبة سمتها العامة.

إن الفينيقيين والرومان والعرب على الخصوص، أغنوا كثيرا، دون أدنى ريب، القاعدة الحضارية لشعوب افريقيا الشمالية، إلا أن هذا الاسهام لم يكن على ما يبدو كثيفا من الناحية السلالية. إذ تم « التهامه » بسرعة، حيث أن ظاهرة الإستيعاب تقع في هذا البلد على مستويين اثنين كلما سنحت لها فرصة التكون:

– فعلى المستوى السلالي، يؤول مصير المهاجرين، الذين يمثلون الأقلية إلى الذوبان في الكيان الأصلي السائد والمهيمن،

– أما على المستوى الحضاري، فان الأمر يختلف، إذ تصل المساهمة الجديدة الأكثر فعالية والأشد طاقةً إلى فرض نفسها دون أن تستطيع طمس المعالم القديمة. وإن أولائك الذين كانوا يعتبرون أنفسهم كنعانيين وقرطاجيين أو رومانيين، كما هو الشأن بالنسبة للذين يعتبرون اليوم أنفسهم عربا، يساهمون جميعا في هذه البنية الليبية الافريقية أو البربرية، التي كان التاريخ قد وجدها مكتملة التكوين في افريقيا الشمالية الممتدة من خليج سيرت إلى المحيط الأطلسي.



النمط المعماري اليمني. الخزانة العامة بالرباط.